الوصية الجامعة

للعلامة ابن تيمية

من روائع التراث الإسلامى تلك الوصية الجامعة التى أرسلها ابن تيمية إلى رجل سأله وصية فيها صلاح دينه ودنياه .

هذا سؤال أبى القاسم المغربى :

يتفضل الشيخ الإمام ، بقية السلف ، وقدوة الخلف ، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب تقى الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية بأن يوصينى بما يكون فيه صلاح دينى ودنياى ، ويرشدنى إلى كتاب يكون عليه اعتمادى فى علم الحديث ، وكذلك فى غيره من العلوم الشرعية وينبهنى على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات ويبين لى أرجح المكاسب كل ذلك على قصد الإيمان والاختصار والله تعالى يحفظه والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته .

الجـــواب

الحمد لله رب العالمين .

أما الوصية ، فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها .

قال تعالى : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله »

ووصى النبى « صلى الله عليه وسلم » معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال :

« يا معاذ : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة بالحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » وكان معاذ رضى الله عنه من النبى « صلى الله عليه وسلم » بمنزلة علية فإنه قال له : « يا معاذ : والله إنى لأحبك » وكان يردفه وراءه .

وروى فيه : أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وأنه يحشر أمام العلماء برتوه ، أى بخطوة — ومن فضله أنه بعثه النبى صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه ، داعيا ومفقها ومفتيا وحاكما إلى أهل اليمن .

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام ، وإبراهيم إمام الناس ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : « إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين تشبيها له بإبراهيم » .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية ، فعلم أنها جامعة وهى كذلك لمن عقلها ، مع أنها تفسير الوصية القرآنية . أما بيان جمعها . فلأن العبد عليه حقان : حق الله عز وجل ، وحق لعباده . ثم الحق الذى عليه لابد أن يخل ببعضه أحيانا ، إما بترك مأمور به ، أو فعل منهى عنه .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «اتق الله حيثما كنت» هذه كلمة جامعة ، وفى قوله: « خيثما كنت » تحقيق لحاجته إلى التقوى فى السر والعلانية ، ثم قال : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فإن الطبيب متى تناول المريض شيئا فهذا أمره بما يصلحه ، والذنب للعبد كأنه أمر حتم . فالكيس هو الذى لا يزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات . وإنما قدم معنى لفظ هنا محوها لا فعل الحسنة فصار كقوله فى بول الأعرابى « صبوا عليه ذنوبا من ماء » .

وينبغى أن تكون الحسنات من جنس السيئات فإنه أبلغ فى المحو ، والذنوب يزول موجبها بأشياء أحدها التوبة ، والثانى الاستغفار من غير توبة . فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب ، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال .

الثالث : الأعمال الصالحة المكفرة . إما الكفارات المقدرة كما يكفر الجامع فى رمضان والظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج ، أو تارك بعض واجباته ، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة وهى أربعة أجناس : هدى وعتق وصدقة وصيام . وأما الكفارات المطلقة كما « قال حذيفة لعمر » : فتنة الرجل من أصله وماله وولده يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح من التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام والحج وسائر الأعمال التى يقال فيها : من قال كذا وعمل كذا غفر له ، أو غفر له ماتقدم من ذنبه ، وهى كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصا ما صنف فى فضائل الأعمال .

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه ، فأن الإنسان من حين يبلغ ، خصوصا من هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التى تشبه الجاهلية من

بعض الوجوه ، بأن الإنسان الذى ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء فكيف يغير هذا ؟ وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث أبى سعيد رضى الله عنه لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . خالوا يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ خير تصديقه فى قوله تعالى « ماستمعتى بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا » ولهذا شواهد من الصحاح والحسان .

وهذا أمر قد يسرى من المنتسبين إلى الدين من الخاصة . كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينه ، فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم ، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذى بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل على أحوال الناس .

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للاسلام فهو كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، وكان ميتا فأحياه الله وجعل له نوراً يمشى به بين الناس ، ولا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك . فأنفع ماللخاصة والعامة والعلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو أتباع السيئات والحسنات . الحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات . وبما يزيل موجب الذنوب المصائب المكفرة ، وهى كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى من مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك ، لكن ليس هذا من فعل الصبر .

فلما قضى بهاتين الكلمتين : حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد ، قال « وخالق الناس بخلق حسن » وهو حق الناس ، وجماع الخلق الحسن مع الناس : أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيادة له ، وتعطى من حولك من التعليم والمنفعة والمال وتعفو عمن ظلمك من دم أو مال أو عرض . وبعض هذا واجب وبعضه مستحب . وأما الخلق العظيم الذى وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقا ، هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » وحقيقة المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى من طيب نفس وانشراح صدر .

وأما بيان أن هذا كله من وصية الله ، فهو أن رسم تقوى الله يجمع فعل كل

ما أمر الله به إيجابا واستحبابا ، وما نهى عنه تحريما وتنزيها ، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد . لكن لما كان تارة يعنى بالتقوى خشية العذاب المقتضية بالانكفاف عن المحارم ، جاء مفسراً ففى حديث معاذ وكذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه « قيل يارسول الله ما أكثر مايدخل الناس الجنة ؟ قال : تقوى الله وحسن الخلق . قيل : وما أكثر مايدخل الناس النار؟ قال : الأجوفان : الفم والفرج » .

وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » فجعل كمال الإيمان من كمال حسن الخلق ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله ، وتفصيل أصول التقوى وفروعها لايحتمله هذا الموضع ، فإنها الدين كله لكن ينبوع الخير وأصله : إخلاص العبد لربه وعبادته واستعانته كما فى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) وفى قوله : (فاعبده وتوكل عليه) وفى قوله : (عليه توكلت وإليه أنيب) وفى قوله : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له) بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعا بهم أو عملا لأجلهم ، ويجعل همته ربه تعالى ، وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجه ومخافة وغير ذلك ، والعمل له بكل محبوب ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعطيه ذلك .

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالاجماع بين العلماء بالله وأمره : أن ملازمه ذكر الله دائما هو أفضل ما شغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك دل حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم : « سبق المفردون ، قالوا : يارسول الله ومن المفردون ؟ قال : الذاكرون لله كثيرا والذاكرات » .

وفيما رواه أبو داود عن أبى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها من درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : ذكر الله » والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة . وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين صلى الله عليه وسلم كالأذكار المؤقتة فى أول النهار وآخره ، وعند أخذ

المضجع ، وعند الاستيقاظ من المنام ، وأدب الصلوات والأذكار المقيدة ، مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع ، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك ، وعند المطر والرعد ، إلى غير ذلك ، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل يوم وليلة . ثم ملازمة الذكر مطلقا ، وأفضله لا إله إلا الله . وقد تعرض أحوال يكون بقيـة الذكر مثل سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله أفضل منه . ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه وأمر بمعروف ونهى عن منكر فهو من ذكر الله . ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض ، أو جلس مجلسا يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذى سماه الله ورسوله فقها ، فهذا أيضا من أفضل ذكر الله . وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين فى كلماتهم فى أفضل الأعمال كبير اختلاف . وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة ، فى ندم من استخار الله تعالى . وليكثر من ذلك ومن الدعاء ، فإنه مفتاح كل خير ، ولا يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى .